طبيب القرية

كنت فى موقف عصيب . فقد كان ينبغى أن أرحل على عجل لعيادة مريض ينتظرنى فى قرية تبعد منا عشرة أميال ؛ وكانت عاصفة جليدية هوجاء تحتل الفضاء الممتد بيننا ؛ وكان عندى مركبة خفيفة كبيرة العجلات ، وهى خير ما يصلح لمثل هذه الطرق فى الأرياف ؛ ووقفت فى فناء الدار ، متدثراً بمعطفى المصنوع من الفراء ، حاملا علبة الأدوات الجراحية فى جيبى ، متأهباً للرحيل . غير أن شيئاً واحداً كان ينقصنى : ذاك هو الفرس . . . فقد هلك فرسى البارحة تحت وطأة البرد . وأرسلت خادمى تطوف القرية عسى أن تجد من يعيرنا فرسه . ولكنى كنت أعلم أنه سعى مقضى عليه بالاخفاق . ومكثت بلا أمل هامداً فى مكانى ، تزداد شرايينى تصلباً ، وتتراكم فوق كتفى طبقات الجليد ، حتى لمحت خادمى تقترب فارغة اليد إلا من مصباح ينير أمامها الطريق . . . وأى عجب فى هذا ؟ . . . وأين هو ذاك الذى يعير فرسه فى هذه الأيام لرحلة تمتد عشرة أميال ! وعبرت الفناء ثانية ، لا أستطيع التفكير فى شئ . وإذ أنا هكذا شارد البال معذب النفس ركلت بقدمى باب حظيرة الخنازير المتحطم ، فانفتح متخبطاً وإحدى تلك هذه الحظيرة قد استخدمت منذ سنوات ، فدهشت للرائحة والدفء المنبعثين منها . ورأيت فى الداخل مصباحاً شاحب الضوء مشدوداً إلى طرف حبل . ثم لمحت رجلا أحدب الظهر قابعاً فى أحد الأركان يدير لى عينيه الزرقاوين ووجهه المنبسط .

واقترب منى الرجل زاحفاً على يديه وقدميه ، وسألنى :

— أتريد أن ألجمهما ؟

وكانت الخادم بجوارى ، فصاحت مازحة :

— حقا أنه لا يدرى إنسان بكل مايحتويه بيته !

وضحكنا معاً . وسمعت السائس ينادى الخيل . وسرعان ما ظهر فرسان قويان يجبو أحدهما خلف الآخر ، حتى إذا وصلا إلى باب الحظيرة طأطأ رأسيهما وانسلتا بحركة رشيقة من المنفذ الضيق المنخفض . فلما انتصبا ، بدهنى منهما فراهة القوام .

والتفتُّ إلى الخادم وقلت :

— ساعدى السائس .

وسارعت الخادم المطيعة إلى اللجام تقدمه للسائس . ولكن ما إن اقتربت منه حتى أمسك بها وانقض بوجهه على وجهها . فصرخت الفتاة ولاذت بى . ورأيت خدها وقد طبع عليه باللون الأحمر صفان من الأسنان . فصحت غاضباً :

— أيها الوحش ، أتريد أن ألفعك بالسوط !

ولكنى تذكرت على التو أنى أمام شخص لا أعرفه ، ولا أعرف من أين أتى ، وأنه تقدم لمعونتى حينما تخلى عنى الجميع . وكأنما الرجل قد قرأ ما يدور بخاطرى ، فلم يحنقه وعيدى ، بل التفت إلى ، ولم يزل منهمكا فى عمله ، وقال فى بساطة :

— تفضل واركب . . .

وكان فى الواقع قد أعد كل شئ .

وتذكرت أن عربتى لم تحظ قط بمثل هذين الفرسين الرائعين ؛ فصعدت مبتهجاً .

ثم نظرت إلى الرجل وقلت :

— سأمسك أنا باللجام ، فأنت لا تعرف الطريق .

فأجاب :

— بكل تأكيد . . . فلست ذاهباً معك ، بل سأمكث مع روزا .

وصاحت روزا محتجة . فلما شعرت بمصيرها المحتوم على يدى الرجل ، فرت هاربة إلى داخل المنزل .

وسمعت صوت السلسلة تشد ، والقفل يوضع وهى توصد باب المنزل . ورأيتها تطفئ نور البهو ، ثم أنوار الحجرات جميعاً ، كيما تخفى نفسها .

والتفت للسائس وقلت :

— إما أن تأتى معى أو أعدل عن الرحيل بالرغم من ضرورته العاجلة . فلست أرضى أن أدفع لك هذه الفتاة ثمنا لرحلتى .

وكان كل جواب الرجل أن صاح فى الفرسين وصفق بيديه ؛ فانطلقت بى المركبة كأنها قطعة من الخشب يحملها سيل جارف . ومع ذلك فقد سمعت باب منزلى يتحطم تحت ضربات السائس ، ثم امتلأت أذناى وعيناى بطنين تشعب وانتشر حتى استحوذ على جميع حواسى . ولكن ذلك لم يدم أكثر من لحظة . ولكأن باب غرفة المريض يطل على باب غرفتى ؛ إذ سرعان ما رأيت

نفسى قبالته . ووقف الفرسان لا يرمان . وأقبل والدا المريض تتبعهما أخته ، فانتزعونى من المركبة انتزاعاً . ولم أستطع أن أفهم شيئاً من أقوالهم المرتبكة المختلطة . وكان الهواء فى غرفة المريض خانقاً . ورأيت المقلاة تحترق دون أن يعيرها أحد انتباها . وأردت أن أفتح النافذة ، ولكنى تذكرت أنه ينبغى أولا أن أفحص المريض . وكان الصبى ناحل الجسم فارغ العينين عارى الكتفين ، ولكنه لم يكن بارداً ولا ساخناً . ومنا إن اقتربت منه حتى زحف ورفع رأسه وتعلق بعنقى ثم همس فى أذنى :

— دعنى أموت يادكتور .

وتلفتُّ حولى ؛ ولكن أحداً لم يسمع قول الصبى . ورأيت الوالدين واجمين مطرقين فى انتظار حكمى . وكانت الأخت قد أحضرت مقعداً لأضع عليه علبة الأدوات الجراحية . وفتحت العلبة وقلبت النظر فى الأدوات ؛ فى حين كان الصبى لا يكف عن الايماء إلى يده تلميحاً بوصيته . وأمسكت بملقاط ، وفحصته على ضوء الشمعة ، ثم أعدته إلى مكانه . وقلت لنفسى ناقماً : حقا أن الآلهة فى مثل هذه الظروف لا يضنون علينا بمعونتهم . . فهم يرسلون لك فرساً بدل الفرس المفقود ، بل يتكرمون عليك بفرس ثان كى يتيحون لك الذهاب إلى أبعد مما تريد . وهم يهبون لك سائساً بأبخس الأثمان . . .

وعندئذ فقط تذكرت روزا . ماذا أفعل ؟ كيف أنقذها ؟ كيف أخلص جسدها من وطأة هذا السائس ، وهى تبعد عنى عشرة أميال ، ولدى فرسان لا سلطان لى عليهما ؟ فرسان يرفعان عن نفسيهما اللجام ، ولا أدرى كيف يقطعان السلاسل ، ثم يطلان برأسيهما من خلال النافذة ويراقبان المريض دون أن تزعجهما صرخات الأسرة . . .

وقلت لنفسى : سأعود فى الحال ؛ كأنما كان الفرسان يدعوانى للعودة .

ولكنى مع ذلك تركت الأخت تنزع عنى معطفى . وقدموا لى كأساً من الشراب . وربّت الأب على كتفى ؛ وكأن فى تقديم هذا الكنز الثمين مايسوّغ رفع الكلفة بيننا . فأومأت بالرفض ، لا لسبب سوى أنى شعرت بنفسى أختنق إذ أدخلنى الرجل فى نطاق ذهنه الضيق . ودعتنى الأم إلى جوار المريض ؛ فأطعتها . وبينما كان أحد الفرسين يرسل صهلة عالية فى فضاء الغرفة ، وضعت أذنى على صدر الصبى الذى ارتعش للمس لحيتى المبتلة . وما لبث أن تحول شكى

يقيناً ؛ فهذا الغلام لا داء به . وربما كان مصاباً بعض الشئ بفقر الدم ، ولكنه مع ذلك معافى البدن ، ولا أفضل له من « علقة » كى ينتصب على قدميه . إلا أنى لست من رجال التربية ولا من رجال الاصلاح ، فتركته آمناً فى فراشه . إنى أحد الموظفين التابعين لسلطات المنطقة . وإنى لأقوم بواجبى إلى آخر ما ينبغى ، بل إلى الحد الذى يوشك أن يتعدى معه ما ينبغى . فمع أجرى الضئيل ، لا أضن قط بمعونتى على الفقراء . على أن هذا كله لا ينسينى روزا . وبعدها ، فلعلنى انتصحت بالغلام وطلبت الموت أنا أيضاً . وماذا عسى أن أفعل هنا فى هذا الشتاء الذى لا ينتهى ؟ لقد نفق حصانى ، ولم أجد أحداً يرضى أن يعيرنى فرسه ، فلم يبق أمامى غير حظيرة الخنازير . ولولا أن شاءت المصادفة أن أجد خيلا فى هذه الحظيرة ، لاضطررت أن أوثق بعض الخنازير إلى عربتى ، هذا هو مجمل قصتى . وأخذت أهز رأسى حسرة وأنا أتأمل وجوه الأسرة . إنهم لا يعلمون شيئاً من كل هذا . وإن علموا به فلن يفهموا معناه . إنه من اليسير أن نحرر لمرضانا البطاقات ؛ ولكن العسير حقا هو أن نفهم الناس ، ونحمل الناس على فهمنا .

وهكذا انتهت مهمتى . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يقلقنى الناس فيها بلا مسوغ . وقد تعودت ذلك ؛ فسكان المنطقة جميعاً لا يكفون عن طرق بابى طوال الليل وآناء النهار . ولكن الفاجع فى هذه المرة أنى أرغمت على التخلى عن روزا ، هذه الفتاة الباهرة التى عاشت كل هذه السنوات فى بيتى دون أن أعيرها إلا أقل الانتباه . . . وسس قلبى الشعور بجسامة هذه التضحية من جانبها ، حتى أوشكتُ — لولا جهدى فى ضبط عواطفى — أن أنقضّ على هذه الأسرة التى عاقتنى عن إنقاذ روزا . ولكنى بعد أن أقفلت علبة أدواتى وأمسكت بالمعطف استعداداً للرحيل ؛ ثم رأيت الأب والكأس فى يده ، والأم التى خيبتُ ظنها ، يغصان بالبكاء ويعضان شفاههما ؛ ورأيت الأخت تمد لى منشفة ملوثة بالدماء ؛ إذذاك شعرت أنى على استعداد للتسليم بأن الصبى قد يكون مريضاً . واقتربت منه ، فبادرنى بابتسامة عريضة كما لو كنت قد جلبت له أطيب الطعام . . . آه ! ها هما الفرسان يعودان للصهيل . ولا بد أن هذا الصوت قد أوحت به السماء ليسهل الكشف عن الأدواء . فالآن حقا أبصر العلة ؛ والغلام مريض ما فى ذلك شك . لقد رأيت جرحاً طويلا عريضاً فى اتساع طبق فنجان ينكشف أمام ناظرى فى الجنب الأيمن عند ارتفاع العجز . إنه قرمزى اللون ، تتعدد

الظلال الثقيلة فى وسطه ، وتخف تدريجيا عند أطرافه فى شكل حلقات متعرجة ، وتتجمع فى أقنيته الدماء بغير انتظام . هكذا كان يبدو الجرح من بعد . أما عن كثب فالأمر أدهى . ومن يستطيع أن يحدق فى هذا دون أن ينطلق الصفير من فمه ! لقد أبصرت ديداناً فى حجم الخنصر ، مخضبة بالدماء ، تتلوى أجسامها، وترفع رؤوسها الصغيرة البيضاء ، وتختلج سيقانها الدقيقة التى لا حصر لها فى قاع الجرح . . . ولكنى ، أيها الغلام المسكين ، لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً . لقد عثرت على الجرح الخطير ، هذا الجرح الذى يفتك بك . وقد أبدت الأسرة اغتباطها إذ رأتنى مشمراً عن ساعد الجد . همست بذلك الأخت فى أذن الأم ، والأم فى أذن الأب ، والأب فى أذن زائر النسل على أطراف قدميه تحت ضوء القمر المنسكب من الباب المفتوح ، رافعاً ذراعيه حتى يحتفظ بتوازنه .

ويبدو أن هذه الحياة الزاخرة المضطربة فى باطن الجرح قد استأثرت بلب الصبى ، فتوقف لحظة عن النشيج ، وسألنى متوسلا :

— ألا تنقذنى !

وهذا هو العجيب من أمر الناس فى بلدى ؛ فهم دائماً يطلبون المستحيل من الطبيب . لقد تضعضع إيمانهم القديم القويم . وبينما يجلس القسيس عاطلا فى بيته ينسل أثوابه الكهنوتية الواحد بعد الآخر ، يطلب من الطبيب أن يأتى بالمعجزات . . . ولكم مع ذلك ما تشاءون . ولست أنا الذى قدمت لكم نفسى ، ولكنى لن أصدكم إذا ابتغيتم أن تتخذونى أداة لتنفيذ غاية مقدسة . وماذا فى وسعى أن أفعل خيراً من هذا ، ولست إلا طبيباً قروياً شيخاً ، اغتصبت خادمته ! وهاهم أولاء القوم يقبلون على مجموعهم ، أفراد الأسرة وكهول القرية ، فينزعون عنى ملابسى . على حين تحتشد أمام المنزل فرقة من التلاميذ على رأسهم أستاذهم ، فينشدون فى لحن لا أسلس منه هذه الأغنية :

جردوه من ملبسه
كى يحسن التطبيب
واقتلوه إن لم يفلح
فما هو إلا طبيب
ما هو إلا طبيب . . .

وهأنذا أقف عارياً ، أنظر فى رباطة جأش إلى وجوه القوم ، ممسكا لحيتى بيدى ، وقد مال رأسى إلى أحد الجانبين ، وكنت أشعر أنى سيد القوم جميعاً ؛ ولكن ذلك لم يُجدِنى فتيلا . فقد أمسكوا برأسى وقدمى ، وحملونى إلى الفراش ، وأرقدونى ناحية الحائط بجوار الجرح الخطير . وبعدئذ غادروا الغرفة جميعاً وأسكتوا المنشدين ، ومرت السحب فحجبت القمر . وانبعث حولى دفء الفراش . وقد ألقى الفرسان ، كالظلال ، رأسيهما على النافذة .

وسمعت من يهمس فى أذنى ويقول :

— لا أخفى عليك أنى غير مطمئن إليك . فلقد قذفت إلى هذا المكان قذفاً ، ولم تحملك إليه قدماك . وعليك بدلا من أن تساعدنى ، أن تدفعنى إلى الانكماش فى فراش الموت . ولو تركت لنفسى عنانها ، لانتزعت عينيك من رأسك . . .

فقلت :

— هذا حق ؛ و إنه ليبعث على الخجل . ولكنى لست إلا طبيبا ؛ فماذا أستطيع أن أفعل ؟ صدقنى إذا قلت إن الدور الذى أقوم به ليس بالهين ولا باليسير . . .

— أينبغى أن أقنع بمثل هذا الاعتذار ؟ إنى مرغم للأسف على الرضا به . بل لا مفرّ لى من الرضا فى جميع الأحوال . فلقد أتيت إلى هذا العالم لا أملك غير هذا الجرح الجسيم ، ولم أجلب للعالم شيئاً سواه . . .

وأجبته قائلا :

— إن آفتك ياصاح أنك لا ترى كل ما يدور حواليك . وأستطيع أن أنبئك ، أنا الذى طفت بغرف المرضى جميعاً ، أن جرحك ليس من الخطورة كما تتوهم . لقد أصابتك فقط نقرتين من معول . وهناك آخرون كثيرون يكشفون عن جوانبهم دون أن يصيخوا باذانهم إلى ضربات المعول فى الغابة ، بل إنهم ليصيبهم الصمم إذ يقترب من جوانبهم المعول .

— أهناك حقاً مثل هؤلاء القوم ، أم أنت تخدعنى وأنا فى هذيانى ؟

— بل هناك مثل هؤلاء القوم . وخذها كلمة من طبيب حلف اليمين . بل احملها معك إلى العالم الآخر . . .

وكان أن سكت وحملها إلى العالم الآخر . ولم يبق إلا أن أفكر فى أمر نفسى . وكان الفرسان لا يزالان فى مكانهما . فهرولت أجمع ملابسى ومعطفى

وعلبتى ، جمعتها ولكنى لم أرتدها ، حتى لا تضيع لحظة من وقتى . وإذا ما ركض لفرسان بالسرعة نفسها التى أحضرانى بها ، فلسوف أقفز من هنا إلى دارى فيما لا يتجاوز غمضة عين . وقذفت بملابسى إلى العربة ؛ ولكن المعطف ذهب إلى بعد مما أردت ، فاشتبك من كمه بقضيب العربة الخلفى . لا بأس . . . وقفزت إلى ظهر أحد الفرسين . وأخذت حطام اللجامين تسلف الأرض . وقد كاد ينبت كل رباط بين الفرس والفرس ، وبين الفرسين والعربة المتعثرة خلفنا وفى طرفها معطفى الزاحف على الجليد .

وصحت بالفرسين أن يسرعا . ولكنهما سارا فى تثاقل الكهول خلال هذه الصحراء من الجليد . وبقى صوت الأغنية الجديدة ، أغنية الأطفال المخطئين ، يترامى إلى أذنى فترة طويلة من الزمن . وكانوا ينشدون قائلين :

ابتهجوا أيها المرضى .
فها قد عادكم الطبيب .

ولم أبلغ قط دارى . وهكذا فقدت زبائنى الذين لاحصر لهم . وسوف يغتصبهم ولا شك خلفى . ولكن ذلك لن ينفعه . فالسائس اللعين يعيث فى بيتى ، وقد أسست روزا فريسته . ولست أحب إمعان التفكير فى هذا الموضوع . وهأنذا أضرب فى الأرض ، ومعى عربة من صنع البشر وفرسان خارقان للطبيعة . إنى أضرب فى الأرض وأنا الرجل الشيخ ، شريداً عارياً لا يقينى لباس من برد هذا العصر التعيس . وأرى معطفى يزحف خلف العربة ، ولكن يدى لا تبلغه . ولن يتحرك لعونتى واحد من أولئك المرضى الأوغاد المترحمين . . . لقد غدر بى ! لقد غدر بى ! وكفانى من ذلك مرة . لقد أخطأت عندما استجبت لنداء الطارقين . ولا مرد لما ارتكبت .

فرانز كافكا

نقلها إلى العربية رمسيس يونان